-١٠-

الترجمة الغيرية

في بيان وتبيين الجاحظ

طبيعتها ومنهجيتها

الدكتورة عذراء محمد راغب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عني العرب منذ زمن التدوين والتأليف بتراجم الرجال والنساء ولاسيما ان علماء العرب نقلوا معظم اشعار العرب وخطبهم وايامهم واقوالهم من صدور الرجال وحفظهم، بل إن الحديث النبوي الشريف جمع من المحدثين الثقات الذين ترجم لهم ولأصولهم ولا يزال الباحث اليوم به حاجة ملحة لعلوم اللغة العربية والتاريخ والتشريع والفقه والتراث والتبويب لترجمة اسماء الاعلام التي ترد في عمله، وهذا يستلزم العودة لكتب التراجم والسير وهي كثيرة محض اصحابها جهدهم في الترجمة لرجال العرب قبل الاسلام وبعده في قرون متعاقبة وان وقعت تراجم كثيرة منهم غير متسلسلة زمنيا معتمدة الترتيب الالفبائي.

ونظرة عامة في بعض كتب التراجم مثل الفهرست لابن النديم المتوفى ٣٨٠هـ[١]. وابن عبد ربه في عقده الفريد ت ٣٢٨هـ، وابن قتيبة قبلهما في الشعر والشعراء ٢٧٦هـ[٢] ثم ابن خلكان في وفياته ت ٦٨١هـ الى غيرهم من مصنفي التراجم. كفيلة بايضاح هذا

(١) انظر الفهرست، ابن النديم، ضبط، د.يوسف علي طويل، ط٢، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، وما قاله يوسف في وفاة ابن النديم .

(٢) انظر في المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان اذ عدها من كتب التاريخ والادب، ص ١٥٠، ١٥١، ١٧٢، بما فيهم ابن النديم اذ عده جرجي زيدان مؤرخاً في فهرسه، ص١٧١.

الاتجاه التأليفي الذي ساد مؤلفات الادب والتاريخ قبل مؤلفات الطبقات والتراجم منذ منتصف القرن الثالث واواخره.

ومن الغريب ان نجد الباحثين استعانوا بتراجم كتب الادب من دون التمعن بطبيعة الترجمة في الاطار الادبي الموضوعي في حين عنوا بالتراجم ضمن الشرح التاريخي للاحداث والوقائع، وخير شاهد على ذلك كتاب البيان والتبين للجاحظ الذي استعان به قدامى المترجمين واصحاب الطبقات في تآليفهم فضلا عن المحدثين فكتاب البيان للجاحظ ت ٢٥٥هـ[١] يتميز بين كتب الادب بمنهج خاص في ايراد التراجم، اذ اتخذ من موضوعات اللغة والفصاحة والبلاغة والعي والحمق وآداب الملوك وبطون قبائل العرب مادة دسمة للترجمة الغيرية[٢].

وقد حرص الجاحظ على اثراء بيانه بترجمات فردية لرجال ونساء علماء ونحاة ولغويين وملوك وغيرهم من السوقة موظفة توظيفا رفيعا في خدمة موضوعات الكتاب، فضلا عن ترجمات لأتوام وامم وقبائل وفرق وملل مثل الخوارج والاباضية وغيرها، وكان سباقا في صياغة التراجم الدينية[٣] في اطار تعليلي وتحليلي لطيف ولكل نوع من هذه تفصيلات ودقائق سنعرض لبعضها في هذا البحث.

---

(١) انظر ابن النديم وترجمته للجاحظ في الفهرست، ص٢٩١-٢٩٦، وفيات الاعيان وابن خلكان، ج٣، ص٤٧٠-٤٧٥، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج١٢، ص٢١٢، الامالي (غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى، ج١، ص١٩٤، محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٤، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، ص٢٦٥، دار المعرفة، بيروت، معجم الادباء، ياوقت الحموي، ج٤، ص٤٧٢-٤٩٨، بيروت، ١٩٩١، البيان والتبيين، حسن السندوني، ج١، ص١٨، ط١، ١٣٤٥هـ-١٩٢٦م.

(٢) انظر مقدمة الترجمة الذاتية، د. يحيى ابراهيم عبد الدايم في انواع التراجم في رسالته، مطبعة السعادة، ١٩٧٤.

(٣) يقصد بالتراجم الدينية ما اورده في شرح الايات والاحاديث عن انبياء الله عليهم الصلاة والسلام وبعض القصص القرآنية والحديث الشريف.

اولاً- الترجمة الدينية:

ورد عند الجاحظ قول لرسول الله ﷺ في باب الصمت يترجم فيه: «وقال العايشي وخالد بن خداش حدثنا مهدي بن ميمون بن غيلان بن جرير عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن ابيه. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد فقلنا: يا رسول الله، انت سيدنا وأنت أطولنا علينا طولا، وأنت الجفنة الغراء. فقال النبي ﷺ « أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان، فانما انا عبد الله ورسول[١] « هذا فيما يتعلق بتواضعه ورسالته للناس عليه الصلاة والسلام، وذكر في معرض ذكره للخطابة ولسانه (عليه الصلاة والسلام) قوله في نبي الله شعيب « وذكر رسول الله ﷺ شعيبا النبي رَحِمَهُمَاٱللَّهُفقال: « كان شعيب خطيب الانبياء «....وهذه خطب رسول الله ﷺ مدونة محفوظة ومخلدة مشهودة.....وقد كان لرسول الله شعراء ينافحون عنه وعن اصحابه بأمره. وكان ثابت بن قيس بن الشماس الانصاري خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد»[٢] وهذه ترجمة لاقواله في انبياء الله عليه الصلاة والسلام استنبطها الجاحظ وقدمها في الاطار الادبي خدمة لموضوعاته فضلا عن التوثيق الذي ذكره في خطب رسول الله، وقد أورد منها شيئا غير قليل، ومما نثره في بيانه من سيرة رسول الله خبرا أثبت فيه نسبه الشريف لاسماعيل عليه السلام. قال: «..قال زيد[٣]: «فقد كان اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليه ابن أمة، واسحق رَحِمَهُمَاٱللَّهُابن حرة، فاخرج الله عز وجل من صلب اسماعيل رَحِمَهُمَاٱللَّهُخير ولد آدم محمد ﷺ[٤].»وفي صفاته الانسانية عليه الصلاة والسلام، أورد خبرا وهو يصف

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ج١، ص١٤٣.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص١٤٧.

(٣) زيد بن علي بن الحسين في حديثه مع هشام .

(٤) البيان، ج١، ص٢٠٤، وانظر وقارن كيف اقتبس ابن خلدون ايراد سيرة الرسول ﷺ ونسبه في (الفصل السادس في المساجد والبيوت العظيمة في العالم) ضمن مقدمة ابن خلدون، ص٢٢١-٢٢٥.

الخطيب، وذم العرب التشادق – قال في طلب عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ نزع ثنيتي سهيل بن عمرو الا علم احد بني حسل بن معيص، فرد رسول الله ﷺ « لا امثل فيمثل الله بي وان كنت نبيا، دعه ياعمر فعسى ان يقوم مقاما نحمده»[١].

ولا يخفى ان في الخبر شيئاً من وصف طبيعة عمر فضلا عن توثيقه نسب سهيل بن عمرو وهي ميزة تفرد بها الجاحظ واعتمد اخباره وكتبه من بعده كثير من صناع التراجم والطبقات، بل وحتى منهجه في ايراد الاخبار والافادة منها في تصويب نظرية او مناقشة معنى آية قرآنية او حديث شريف[٢] ورسم الجاحظ لرسول الله ﷺ صورته الخطابية ولسانه في (باب الخطباء والبلغاء والانبياء، وذكر قبائلهم وأنسابهم) قال ((وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ ما لم يسبقه اليه عربي ولم يشاركه فيه عجمي، ولم يدع لاحد ولا ادعاه احد مما صار مستعملا ومثلا سائرا فمن قوله « يا خيل الله اركبي « فمن ذلك قوله « مات حتف أنفه «.....ولما قال عدي بن حاتم في قتل عثمان رَحِمَهَاٱللَّهُ: «لا تحبق فيه عناق...فلم يصر كلامه مثلا، وصار كلام رسول الله ﷺ مثلا))[٣]. واورد الجاحظ كثيرا من احاديث الرسول ﷺ مسندة وغير مسندة، وبعضها قدسية ولم يشر لكلمة حديث، بل هي عنده من كلامه عليه الصلاة[٤] والسلام فكتب الحديث والسنة ظهرت اغلبها اواسط القرن الثالث الهجري او قبله بقليل، مما يجعل الجاحظ معاصرا في

(١) البيان والتبيين، ج١، ص٢٠٧.

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، بيروت، دار الهلال، ١٩٨٨، ص ١٩، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٣ .

(٣) البيان والتبيين، ج٢، ص٢٧، وذكر الجاحظ من كان خطيباً بين يدي رسول الله ﷺ وهو عطارد بن حاجب بن زرارة في ج١، ص٢١٤، وترجم لقس بن ساعدة نقلا عن رسول الله ﷺ «قال فيه النبي ﷺم رأيته بسوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول : «يأيها الناس اجتمعوا، فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت ..» ج١، ص٢٠٣.

(٤) انظر المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧-٤٣ وما اورده الجاحظ .

بيانه لواضعيها وحجة ومرجعا في سيرة رسول الله ﷺ[١] وسبب ايراده اخبار الرسول الكريم ﷺ وكلماته منهج الجاحظ في عرض سيرته عليه الصلاة والسلام، وفكر الجاحظ المعتزلي الذي دفعه لاسلوب محدد في عرض الاقوال والتراجم والاحداث لا سيما بعض الاحاديث فالجاحظ لم يرد السيرة لذاتها انما اراد ارتباطها الوثيق بجوهر موضوعاته، فقد اورد شيئا من سيرة رسول الله ﷺ وهو يصف فصاحته وبيانه او تفضيله لامر ما او رفضه لمظهر ما في الخطيب او الرجل واقواله، وهذا وثيق الصلة بالشخصية نفسها، مما يدخله في اطار السيرة من ذلك على سبيل المثال قوله ﷺ لابي سفيان بن حرب (كل الصيد في جرف الفرا)[٢] ففي قوله عليه الصلاة والسلام وصف لشخص ابي سفيان وما يمثله في قومه فجمع الجاحظ خبرين في قوله عليه الصلاة والسلام ومن المعلوم ان سيرته ﷺ انما جمعت من اقواله واحاديثه الشريفة التي عدت سنة.

وقد كرر جماع الحديث اقواله والاحاديث بغية استخراج حكما خاصا او القياس على ما فعل في امر يعرض لابناء الامة الا ان الميزة في صنيع الجاحظ التفاتة لدقائق بعيدة عن التشريع من ذلك ما نقله « ومن حديث عبد الله بن المبارك، رفعه، قال « اذا ساد القبيل فاسقهم، وكان زعيم القوم ارذلهم واكرم الرجل اتقاء شره، فلينتظروا البلاء «[٣].

وقدم وصفا لطيفا لسجاياه مما روي عنه قال: « ومما روي عنه ﷺ استعمال الاخلاق الكريمة، والافعال الشريفة، وكثرة الامر بها والنهي عما خالف عنها، قوله « من لم يقبل عذرا من متنصل صادقا كان او كاذبا، لم يرد علي الحوض « وقال في آخر وصيته « اتقوا

(١) انظر على سبيل المثال ان وفاة البخاري ٢٥٦هـ كما وردت عند ابن خلكان في وفياته، ج٤، ص١٨٩-١٩١، ووفاة مسلم ٢٦١هـ،كما في والوفيات، ج٥، ص١٩٤-١٩٦.

(٢) البيان والتبيين، ج٢، ص٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤.

الله في الضعفين «[١].

ومن التفاتات الجاحظ اللطيفة في صياغة سيرته ﷺ ذكره لخلق الرسول عليه الصلاة والسلام نقلا عن السلف، بما خصه الله به قال: « قال محمد ابن علي: أدب الله محمدا ﷺ باحسن الآداب فقال: خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين «[٢] فلما وعى قال: « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله «[٣]))[٤].

فجمع في هذا القول ترجمة لخلق الرسول ﷺ وتفسير محمد بن علي للآيتين الكريمتين في رسول الله وهي لمحة ذكية في منهجه العلمي في عرض المعلومات. وللجاحظ في أحيان كثيرة حساب في التقدم الزمني والسبق لمن ينقل عنه خبرا او أثر رسول الله ﷺ فقد قدم على قول محمد بن علي وصف ام المؤمنين لخلق زوجها عليه الصلاة والسلام قال: «وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق النبي ﷺ فقالت خلق القرآن. وتلت قول الله « وانك لعلى خلق عظيم[٥]...»[٦].

وفصل الجاحظ في ترجمة طباع رسول الله ﷺ قال: « وكان رسول الله ﷺ يأكل على الارض، ويجلس على الارض، ويلبس العباء، ويجالس المساكين ويمشي في الاسواق، ويتوسد يده الشريفة، ويقص من نفسه، ويلطع أصابعه، ولا يأكل متكأ، ولم يرقط ضاحكا ملء فيه. وكان يقول « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد،

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦.

(٢) سورة الاعراف، الاية ١٩٩.

(٣) سورة الحشر، آية ٧.

(٤) البيان والتبيين، ج٢، ص٣٦

(٥) سورة القلم، آية ٤ . وانما قدمنا قول محمد بن علي لما فيه من تفسير لروح الايات وسبب نزولها وانظر تخريج الحديث في كنز العمال في سنن الاقوال والافعال للهندي عن قيس بن وهب عن رجل من بني سراة، ج٧، ص١٤٢.

(٦) البيان والتبيين، ج٢، ص٣٦

ولو دعيت الى ذراع لأجبت، ولو أهدي الى كراع لقبلت.. لم يأكل قط وحده ولا ضرب عبده، ولا ضرب أحداً بيده الا في سبيل ربه. ولو لم يكن من كرم عفوه.

ورجاحة حلمه، الا ما كان منه يوم فتح مكة لقد كان ذلك من اكمل الكمال. وذلك أنه حين دخل مكة عنوة،....، قام فيهم خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أقول كما قال أخي يوسف: « لا تثريب عليكم واليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين[١] »[٢] وذكر شيئا مما احبه رسول الله ﷺ وصار سنة في امته فقال « وقالت عائشة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما شبع رسول الله ﷺ من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا»[٣] وقال في طباعه عليه الصلاة والسلام مما نراه اليوم عند ملوك العرب تشبها بسنته « وقال ابو الحسن: أجرى ﷺ الخيل وسابق بينها فجاء فرس له أدهم سابقا فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وقال « ما هو الا البحر «. وقد زعم ناس من العلماء انه لم يستفزه سبق فرسه ولكنه أراد اظهار حب الخيل وتعظيم شأنها»[٤] وهذا دليل على إرادة الجاحظ الترجمة لشخص رسول الله من أقواله وسنته[٥]، وكذلك ما ذكره من تواضع الانبياء الذي يوصى به العلماء والبلغاء قال « ابو عمر والزعفراني قال: كان عمرو بن عبيد عند حفص بن سالم فلم يسأله احد من حشمه في ذلك اليوم شيئا الا قال: لا فقال عمرو: أقل من قول لا، فانه ليس في الجنة قول لا، وان رسول الله ﷺ كان اذا سئل ما لا يجد قال: يصنع الله»[٦] ومن بين الاخبار التي

(١) سورة يوسف، اية ٩٢. وانظر مختصر صحيح مسلم، محمد ناصر الدين الالباني، ط٣، ١٣٩٧هـ-٧٧م، ص٣٥٠.

(٢) البيان والتبيين، ج٢، ٣٧.

(٣) البيان والتبيين، ج١، ص٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٧.

(٥) انظر ما اورده من حديث بن ابي ذئب مرفوعا، ج٢، ص٣٤، في مال الامة والامارة، وحديث الاعور الدجال وخروجه مروفوعا الى معاذ بن جبل الى الرسول ﷺ، ج٢، ص٤٢.

(٦) البيان والتبيين، ج٢، ص١٤٨، وانظر ما اورده عن الفرج بن فضالة مرفوعا الى النبي من خبر امة الاسلام

اوردها في سيرته عليه الصلاة والسلام، انه كان يخطب على ظهر الدواب بعرفة وهي سنة صارت بعده، لان العرب كانت تخطب على الرواحل[١] وجعل خطاب رسول الله ﷺ في آداب الملوك فقال « ولما كلم عروة بن مسعود الثقفي رسول الله ﷺ كان في ذلك ربما مس لحية النبي ﷺ، فقال له المغيرة بن شعبة: نح يدك.....ونادى رجال من وفد بني تميم النبي ﷺ باسمه من وراء الحجرات فقال الله تعالى « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون»[٢] وقال الله عز وجل ذكره « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا[٣]»[٤] ومما ذكره الجاحظ من سيرته عليه الصلاة والسلام انه كان يمشي ومعه محضرة [٥] ويتسوك ويقبل القصاص على نفسه لغيره من المؤمنين قال: «وفي الحديث ان رجلا الح على النبي ﷺ في طلب بعض المغنم وبيده مخصره فدفعه بها فقال: يا رسول الله أقصني ؟ فلما كشف النبي ﷺ له عن بطنه احتضنه وقبل بطنه»[٦] ومن بعض ما ورد عنده في ترجمة رسول الله ﷺ ان مروان بن محمد دفع ببرد وقضيب الرسول ﷺ الى خادم له حين أحيط به وامره بدفنها في بعض الرمال[٧] وذكر فيما ذكر من طعن الشعوبية على قضيب النبي ﷺ وعنزته، وعصاه، ومخصرته، ورد بانها من عادة الانبياء

وما تؤول اليه، ج٢، ص١٨٨، ١٨٩.

(١) البيان والتبيين، ج٢، ص١٩٤ وارد من اثره صلى الله عليه وسم «لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس» وانظر ما اورده من اثره عليه الصلاة والسلام، ج٢، ص٢٠٤.

(٢) سورة الحجرات، اية ٤.

(٣) سورة النور، اية ٦٤.

(٤) البيان والتبيين، ج٢، ص٢٣١.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٦ / ٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣ وقال في ج٣، ص٣٩، انه عليه الصلاة والسلام «كان يخطب بالقضيب « وانظر الخبر في كنز العمال، ج٧، ص١٣٩ .

(٧) انظر ما اورده الجاحظ في هذا الخبر، ج٣، ص٣٩.

اتخاذ العصا كما فعل موسى عليه السلام[١]، واردف انها من عادات امة العرب واخلاق القوم وملتهم. فلكل قوم وملة زي ولغة. وتحسب للجاحظ ادخال هذا الاخبار في الرد على خصوم الاسلام ضمن سيرته عليه الصلاة والسلام فضلا عن طبائع وعادات الرسول التي ذكرها ففي اقوال اعدائه توثيق لما قاله من خبره وطبائعه وما كان يمسك ويتخذ ويخطب ويلبس مع ادراك ان الجاحظ لم يرد السيرة لذاتها انما أراد رد الشبهة عن الرسول والانتصار لطبائع العرب وتواضع الانبياء. فمن اللطائف التي اوردها في سيرته بقصد الترجمة لاخباره والتوثيق التاريخي انه ذكر عنزة الرسول ﷺ التي حملت بين يديه وهي أشهر من ان يحتاج الى ذكر الاسناد في اثبات خبرها، مما يدلل على ان سيرته كانت معروفة باسانيدها في عصر الجاحظ، وربما لهذا السبب اكتفى بايراد الاخبار عنه بالاشارة واللمح في قلب الموضوعات التي ناقشها»[٢] قال: وسمعت اعرابيا ذكر يوما قريشا فقال: كفى بقريش شرفا انهم اقرب الناس نسباً برسول الله ﷺ واقربهم بيتا من رسول الله»[٣] وربما لهذا السبب ولكثرة من تصدى للحديث والسيرة اختار الجاحظ ما اغفله غيره من خبره واثره ﷺ مثل تقنعه على عادة العرب قال ان « رسول الله ﷺ كان لا يكاد يرى الا مقنعا، وجاء في الحديث « حتى كأن الموضع الذي يصيب رأسه من ثوبه ثوب دهان»[٤] فالقناع من سيما الرؤساء كما قال، وتقنعه ﷺ الشاهد الصادق والحجة

(١) المصدر نفسه ، ج٣، ٥٠-٥١.

(٢) انظر البيان والتبيين، على سبيل المثال لا الحصر ما اورده عنه عليه الصلاة والسلام في اتراب الكتاب وفي مباركة الظل، ج٢، ص٧٢.

(٣) انظر المصدر نفسه، ج٢، ص٦٢، وانظر دعائه ﷺ لمعاوية اورده الجاحظ في باب مزدوج الكلام، ج٢، ص٩٦، وهي لمحة ذكية للجاحظ وذكر عليه الصلاة والسلام لعيينة بن حص بالاحمق المطاع، ج٢، ص١٨١.

(٤) انظر المصدر نفسه، ج٣، ص٥٨، ٦٨، وانظر الخبر الذي نقله عن الحسن في انتعاله عليه الصلاة والسلام نعليه في الصلاة، ج٣، ص٦٣.

القاطعة في ذلك، فانظر كيف جمع بين الترجمة لسيما الرسول عليه الصلاة والسلام والرد على مطاعن الشعوبية، بل وجمع بين سنة الرسول وانتصاره للعصا فقال « أكبر آداب النبي ﷺ في السواك وحض عليه ﷺ والمسواك لا يكون الا عصا»[١] وترجم لبعض ازواجه عليه الصلاة والسلام من قوله عليه الصلاة والسلام لهن فقال في الزهد نقلا عنه» أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا» فكانت عائشة تقول: أنا تلك أطولكن يدا. فكانت زينب بنت جحش، وذلك أنها كانت امرأة كثيرة الصدقة وكانت صناعا تصنع بيدها وتبيعه وتصدق به»[٢] حتى ان اقوال رسول الله ﷺ في بعض المهاجرين، أدخلها الجاحظ في ترجمة ابي عبيدة وهو يتحدث في الزهد قال « وقال رسول الله ﷺ « لكل أمة أمين، وأمين هذه الامة ابو عبيدة بن الجراح»[٣] وذكر فيما ذكره عنه ﷺ وهو يؤرخ لفتوتة فقال « قال النبي ﷺ شهدت حرب الفجار وانا ابن اربع عشرة سنة وكنت أنبل على عمومتي. يريد أجمع لهم النبل»[٤] وقوله عليه الصلاة والسلام في رسالته « خصصت بامور، منها اني بعثت الى الاحمر والاسود، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الارض طهورا « فدل بذلك على ان غيره من الرسل انما كان يرسل الى الخاص، وليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول من سائر الامم ان يكذبه وينكر دعواه، والذي عليه ترك الانكار والعمل بشريعة النبي الاول»[٥] ونقل عنه ﷺ وصفه لنفسه ومن سبقه من اخوانه الانبياء « انا

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٥.

(٣) البيان والتبيين، ج٣، ص٨٨ وانظر ما اورده له عليه الصلاة والسلام في الصلاة عن اسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار، ج٣، ١٠١ وما اورده عنه من حق المسلم على اخيه، ج٣، ص١٠٨ وما قاله ﷺ في استجابة الدعاء وحب سماعه، ج٣، ص١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، وانظر ما اوصى به امته ﷺ، ج٣، ص١٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧١ وانظر ما قاله الجاحظ عموم رسالته عليه الصلاة والسلام ولزوم قحطان برسالته قبل نزار، ج٣، ١٦٨-١٦٩ . وما قاله في خطبه عليه الصلاة والسلام، ج٣، ص٢٢٩.

معشر الانبياء بكاء. فقال ناس: ألبك القلة،..»[١] وعلى الرغم من ايراده الحديث لتعليله من عدة وجوه والرد على من طعن في بلاغة وبيان رسول الله ﷺ فهي ترجمة ومن لطيف ما اورده. وقد لا نجده عند غيره من الادباء والمؤرخين، وان اورده في معرض ذكره لقدر الشعر وموقعه في النفع والضر. قول « رقية بنت عبد المطلب في النبي ﷺ :

أبـــني إني رابـــني حجر ... يـغـدو بـكـفـك حـيـثـما يـغـدو
وأخـــاف أن تـلـقـى غـويهم ... أو أن يصيبك بعد مـن يعدو

ولما دخل مكة لقيه جواريها يقلن:

طـلـع الـبـدر عـلـيـنـا ... مـن ثـنـيـات الـوداع
وجـب الـشـكـر عـلـيـنـا ... مـا دعـا لله داع[٢]

ونلحظ في بيان الجاحظ لمحات دقيقة من حياة بعض انبياء الله عليهم الصلاة والسلام مما يعد اسلوباً غريباً متميزاً في الترجمة الغيرية مثل قوله في نبي الله اسماعيل رَحِمَهُمَاٱللَّهُ« قال ابو عبيدة: حدثنا مسمع بن عبد الملك عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٦.

(٢) البيان والتبيين، ج٣، ص٢٤٣، واورد في اثر الشعر قول ليلى بنت النضر بن الحرث بن كلدة لما عرضت للنبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة بعد مقتل ابيها، ج٣، ص٢٣٦ مما يدخل في صلب اثره عليه الصلاة والسلام وترجمة ليلى بنت النضر نفسها.

آبائه قال: اول من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل وهو ابن اربع عشرة سنة»[١] وقال في فضل العصا وهو يرد على الشعوبية فجاء باخبار موسى وآدم وحواء عليهم السلام عفوا عنده قال: « ولم يكلم الله موسى الا من شجرة، وجعل أكثر آياته في عصاه، وهي من الشجرة. ولم يمتحن الله عز وجل صبر آدم وحواء – اذ هما أصل هذا الخلق واوله – الا بشجرة، ولذلك قال « ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين»[٢] وجعل بيعة الرضوان تحت شجرة»[٣] لا سيما اذا كانت هذه التراجم من آي الذكر الحكيم يشرحها ويحللها قال في ترجمته لموسى رَحِمَهُمَاٱللَّهُ «وسأل الله موسى ﷺ حين بعثه الى فرعون بابلاغ رسالته، والابانة عن حجته، والافصاح عن ادلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه «واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي»[٤] وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، واستراحته الى كل شغب، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند، وعلى كل مختال مكايد، حين خبرنا بقوله «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين»[٥] وقال موسى رَحِمَهُمَاٱللَّهُ «وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فارسله معي ردءاً يصدقني[٦] وقال «ويضيق صدري ولا ينطق لساني»[٧] رغبة منه في غاية الافصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الاعناق اليه أسرع،

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٨.

(٢) سورة البقرة، اية ٣٥، وانظر ما نقله عن الكلبي عن ابي صالح ابن عباس في نوع الشجرة التي نودي منها موسى رَحِمَهُمَاٱللَّهُ وكيف كان النداء وكيف كانت عصاه، ج٣، ص٦٩-٧٠ وانظر ما صنعه ابن خلدون في مقدمته شبيها بهذا، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٣) البيان والتبيين، ج٣، ص١٩.

(٤) سورة طه، اية ٢٧-٢٨.

(٥) سورة الزخرف، اية ٥٢.

(٦) سورة القصص، اية ٣٤.

(٧) سورة الشعراء، اية ١٣.

وان كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ افهامهم على بعض المشقة. ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما يشاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المكروه والمحبوب، ولكل زمان ضرب من المصلحة، ونوع من المحنة وشكل من العبادة. ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة، واطلق ذلك التعقيد والحبسة، قوله «رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من اهلي هرون اخي اشدد به ازري وأشركه في أمري»الى قوله «قد أوتيت سؤلك يا موسى»[١] فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخير»[٢].

ويلاحظ التفات الجاحظ الى الخبر القصصي الذي خص الله تعالى به نبيه الكريم موسى عليه السلام، بل هي ترجمته تعالى لسيرة نبيه فضلا عن سيرة عدوه فرعون، وكيف جمع الجاحظ هذه الاخبار القرآنية في تعليل لطيف وتوظيف اعتزالي رائع في خدمة الموضوع الذي يتحدث عنه (الافصاح والابانة) وعيوب النطق، كألطف وادق ما يكون التوظيف لآي الذكر الحكيم في الترجمة، وأدل من هذا الموضع قوله في قريش «وذكر الله تعالى لنبيه حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الاحلام، وصحة العقول. وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الالسنة، واللدد عند الخصومة، فقال:» فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد»[٣] وقال «لتنذر به قوما لدا»[٤] وقال «ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام»[٥].

(١) سورة طه، الايات ٥-٣٢ و ٣٦ .

(٢) البيان والتبيين، ١/ ٢٥.

(٣) سورة الاحزاب، اية ١٩.

(٤) سورة مريم، اية ٩٧.

(٥) سورة البقرة، اية ٢٠٤.

وقال « أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الاجدلاً بل هم قوم خصمون[١]، ثم ذكر خلابة السنتهم، واستمالتهم الاسماع بحسن منطقهم فقال، « وان يقولوا تسمع لقولهم»[٢] ثم قال « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا»[٣] مع قوله «واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل[٤]»[٥] ففرق بين قريش والعرب ونقل الايات في وصف منطقهم واحلامهم ودهائهم ومكرهم وخصومتهم وألسنتهم في ترجمة لطيفة جمعها من سور كتاب الله العزيز

ثانياً- التراجم الأممية:-

وقد يكون الجاحظ اول من نقل الاثر في ترجمة الشخصيات من آي الذكر الحكيم نقلا عن اهل الفقه والتفسير، فمن المعلوم ان كتب التراجم والسير والمغازي كانت تعد من كتب التاريخ « فأهل المئة الاولى من العصر العباسي كان اشتغالهم على سبيل التمهيد مثل اشتغالهم في الادب والتفسير والحديث. وفي كتب الادب كثير من مواد التاريخ عن العرب وبلادهم... وهناك ضرب من التاريخ تخلف عن علم الادب او تفرع عنه نعني اخبار العرب وايامهم واشعارهم وشعرائهم وسائر احوالهم. فهذه كانت داخلة في علم الادب لعلاقتها باللغة والشعر. فلما اتسعت معارف الناس وتولدت العلوم اللسانية بالتفرع عن الادب كما تقدم كان من جملة فروعه ما تخلف عن الاخبار التي كانوا يأتون بها لاثبات معنى كلمة او تعبير شعر او نحو ذلك»[٦] يؤكد هذا الراي ما اورده الجاحظ

(١) سورة الزخرف، اية ٥٨.

(٢) سورة المنافقون، اية ٤.

(٣) سورة البقرة، اية ٢٠٤.

(٤) سورة البقرة، اية ٢٠٥.

(٥) البيان والتبيين، ١/ ٢٦.

(٦) المختصر في تاريخ اداب اللغة العربية، ص١٦١-١٦٢، انظر ما قاله زيدان في جمع السيرة النبوية لانهم عند

في بيانه من ترجمة للامم الغابرة وما عقب عليه من شرح تاريخي لبيتي أبي الطمحان القيسي[١] قال: « وقد ذكرت العرب هذه الامم البائدة والقرون السالفة. ولبعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء في العرب متفرقون مغمورون.

مثل جرهم، وجاسم، ووبار، وعملاق، وأميم، وطسم، وجديس، ولقمان، والهس ماس، وبني الناصور، وقيل بن عتر، وي جدن، ويقال في بني الناصور أن أصلهم من الروم»[٢] ودل على آثار بعض الامم بآي القرآن فقال « فأما ثمود فقد خبر الله عز وجل عنهم فقال: « وثمود فما أبقى»[٣] وقال « فهل ترى لهم من باقية؟»[٤] انا اعجب من مسلم يصدق بالقران ويزعم ان في قبائل العرب من بقايا ثمود...فاما الامم البائدة من العجم مثل كنعان ويونان واشباه ذلك فكثير، ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الاموات ولا الاحياء..!»[٥] وفي تأويل المتأولين لطبائع الامم ترجمة، وهي ترجمة منقولة عن القرآن أضاف لها الجاحظ تعليلا بدقة ملاحظته للاثار والاخبار، ومثل هذا ما نقله في خبر (ترجمة) بعض عادات العرب وهو يمتدح حسن البيان والتخلص من الخصم

جمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا لتحقيق الاماكن التي كتبت بها الايات او قيلت فيها الاحاديث، ص١٦١، وقد عد وفيات ابن خلكان، وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة، والوافي بالوفيات للصفدي، التاريخ المشهور لابي الفداء الخ من كتب التاريخ، ص١٦٤، فضلا عن عد التراجم في العقد الفريد لابن عبد ربه من التاريخ، ص١٥٢.

(١) هو شاعر صعلوك ادرك الجاهلية والاسلام وهو في تاريخ الادب العربي لبلاشير حنظلة بن الشرقي القيني، ج٢/ ١٤٩.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص١٣٩ وانظر توظيف ابن خلدون الترجمة للامم البائدة في مقدمته ونظريته حول العصبية، ص١٠٠-١٠١.

(٣) البيان والتبيين، ج١، ص١٣٩.

(٤) سورة النجم، اية ٥١.

(٥) سورة الحاقّة، اية ٨، وانظر ما عابه على تأويل ابي عبيدة في قوله وثمود فما ابقى ورده عليه .

بالحق والباطل قال « قال ابو عبيدة صاح رؤبة في بعض الحروب التي كانت بين تميم والازد: يا معشر بني تميم اطلقوا من لساني.. والعرب تقول: عي أباس من شلل. كأن العي فوق كل زمانة»[٦]

ترجمة عرب الجاهلية:-

وترجم لعادات عرب الجاهلية وهو يشرح لغويا بيتي النمر بن تولب فقال:» الصدى: طائر يخرج من قبر الميت فينعى اليه ضعف وليه وعجزه، وهذا كانت العرب تقوله في الجاهلية، وهو ها هنا مستعار»[٧] والتفت التفاتة لطيفة التوثيق العرب تاريخهم بالاحداث ووثقها، وهو يذكر خطباء العرب وعلمائهم قال:» ومن الخطباء القدماء « كعب بن لؤي « وكان يخطب على العرب عامة، ويحض كنانة خاصة على البر، فلما مات اكبروا موته، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل»[٨] فخرج من التوثيق الادبي للخطباء الى كيفية ضبط كنانة تواريخها حتى عام الفيل الذي اجتمعت عرب الجاهلية على التوثيق على وفقه حتى استحداث عمر بن الخطاب رَحِمَهَاٱللَّهُ التاريخ الهجري: وهي ترجمة لعرب الجاهلية مما لاشك فيه من دون قصد فرضها الارتباط الوثيق بين تاريخ الادب والخطابة وتاريخ العرب، كما يشير هذا الخبر الى معرفة كنانة بالتاريخ وتمجيدهم الافراد في قبائلهم، ويؤكد اهمية توثيق الاحداث وربما ضبطهم اعمارهم من هذا الباب، ولما أشادوا من بناء أو عقدوا من أحلاف في قبائل العرب قبل الاسلام، وهذا بحد ذاته ينفي عنهم الامية العامة الشاملة، كما ينفي الوحدة الاممية بين قبائلهم، والا لما خص بالذكر كنانة من دون غيرها. ومما ذكره من عادات العرب في باب (ما قيل

(٦) البيان والتبيين، ج١، ص١٥٤.

(٧) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٢.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٦.

في المخاصر والعصي وغيرها) وهو ادخل في الترجمة لامة العرب « كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الارض بالقسي، وتشير بالعصي والقنا، نعم حتى كانت المخاصر لاتفارق ايدي الملوك في مجالسها، ولذلك قال الشاعر:

في كفه خيزران ريحها عبق بكف اروع في عرنينه شمم[١]

واصبح من الجلي ان الجاحظ لم يقصد الترجمة لامة العرب بذاتها، فهي عنده علم يحتج ببيانه، وانما اراد الانتصاف لهم من اقوال ومطاعن الشعوبية عليهم، فضلا عن قصده ان تكون مضامين كتبه تاريخا اجتماعيا وأدبيا، ودليل ذلك أنه يستعين على اقواله وما يورد من اخبار باشعار العرب[٢]، وقدم الجاحظ امة العرب على غيرها من الامم معللا ذلك بقوله « وقد ذكرنا ان الامم التي فيها الاخلاق والآداب والحكم أربع وهي: العرب، والهند، وفارس، والروم....والدليل على ان العرب انطق، وان لغتها أوسع، وان لفظها أدل، وأن اقسام تأليف كلامها أكثر، والامثال التي ضربت اجود واسير»[٣] وفيما يتعلق بلغة امة العرب ونطقها والفاظها مما يعد في ترجمتها قوله « ولم اجد في خطب السلف الطيب، والاعراب الاقحاح، الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رديا، ولا قولا مستكرها. واكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين، ومن اهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو

(١) البيان والتبيين، ج١، ص٢٣٥، وانظر ما قاله في معرض عرضه مطاعن الشعوبية على اخذ العرب في خطبها، الجزء نفسه، ص٢٤٢.

(٢) انظر مقدار ما ساقه من اشعار في دعم آرائه، ١/ ٢٣٥-٢٣٧.

(٣) البيان والتبيين، ص٢٤٣ وانظر ما قاله في اشعار العرب واوزانها والفرق في ذلك بينها وبين الروم والفرس والعجم، ج١، ص٢٤٣-٢٤٤.

كان من نتاج التخير والتفكر»[١] وفي معارف العرب الخلص الاجتماعية قال الجاحظ « تقول العرب: الخلة تدعو الى السلة. وكانوا اذا اسروا اسيرا قال المادح: أسره في مزاحفة ولم يأسره في سلة. وفي الحديث « لا اسلال ولا اغلال» وفي المثل: الحاجة تفتح باب المعرفة»[٢] وللجاحظ ملاحظات دقيقة عدت توثيقا تاريخيا في لغة العرب مثل قوله « وأول لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي.

واول لحن سمع بالعراق: حي على الفلاح»[٣] ونصه يدل على ان العرب تعنى كثيرا بتوثيق اخبار رجالاتها وفصاحة بدوها وحضرها، حتى ان الجاحظ قيد اول لحن سمع في لغتهم وحدد اماكن اللحن كذلك، ولا يخفى على باحث متتبع ما في هذه الاخبار من اهمية قصوى في توجيه الباحثين في فصاحة اللفظ والكلمة العربية واصلها، فوصف اللفظ وفصاحته عنده هو وصف لطبيعة العربي، اذ ميز العرب في معرض رده على مطاعن الشعوبية فيهم فقال:» وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة، ولا استعانة. وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، او في حرب، فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد، فتاتية المعاني أرسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه احدا من ولده.وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر وهم عليه اقدر واقهر. وكل واحد في نفسه انطق، ومكانه من البيان ارفع. وخطباؤهم اوجز،.. وهو عليهم أيسر من ان

(١) البيان والتبيين، ج٢، ص٢١.

(٢) البيان والتبيين، ج٢، ١٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٦١.

يفتقروا الى تحفظ او يحتاجوا الى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب. وان الشيء الذي في ايدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من احاط بقطر السحاب، وعد التراب، وهو الله الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون»[١] وهو بهذا ميز منطقهم من فلسفة اليونانيين ومنطقهم ومن منطق الفرس والعجم اصحاب الفكر الطويلة والناقلين عن الأولين من الامم[٢] وذكر من تقاليد العرب مترجما لهم فقال « فعند العرب العمة واخذ المخصرة من السيما وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجبة ولا القميص ولا الرداء، والذي لا بد منه العمة والمخصرة. وربما قام فيهم وعليه ازاره قد خالف طرفيه، وربما قام فيهم وعليه عمامته وفي يده مخصرته، وربما كان قضيبا.

وربما كانت العصا، وربما كانت قناة... ولولا ذلك لما كانت في خزائن الخلفاء والملوك»[٣] اما في حجهم فقال: «وكانت سيماء اهل الحرم اذا خرجوا من الحرم الى الحل في غير الاشهر الحرم ان يتقلدوا القلائد ويعلقوا عليهم العلائق، واذا اوذم احدهم الحج تزيا بزي الحاج واذا ساق بدنة اشعرها وخالفوا بين سمات الابل والغنم، واعلموا البحيرة بغير علم السائبة، واعلموا الحامي بغير علم الفحول. وكذلك الفرع والرجيبة والوصيلة والعتيرة من الغنم، وكذلك سائر الاغنام السائمة. واذا كانت الابل من حباء ملك غرزوا في اسنمتها الريش والخرق .

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص١٥ وانظر ما قاله في منطق اليونانيين وخطباء الفرس في الصفحة نفسها.

(٢) انظر المصدر نفسه، ج٣، ص١٥-١٦ وما قاله في هذه الامم ومنطقها، وقارن ما قاله ابن خلدون في العرب وعدهم من الامم الوحشية في مقدمته، ص٩٥ وانهم لا يتغلبون الا على البسائط واذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب، ص١٠٣-١٠٤ وانهم ابعد الامم عن سياسة الملك، ص١٠٥.

(٣) البيان والتبيين، ج٣، ص٥٢.

ولذلك قال الشاعر:

يهب الهجان بريشها ورعائها كالليل قبل صباحه المتبلج

واذا بلغت الابل الفا فقأوا عين الفحل، فان زادت فقاوا العين الاخرى، فذلك «المفقأ « و «المعمى»[1] والجاحظ في عمله اشبه بعالم الاجتماع فهو موسوعي في تناوله للموضوعات، وان لم يعمم هذا المنهج في كل ما ترجم له وعنه، الا انه فعل ذلك في حديثه عن امة العرب قال في أزيائهم: « وكان الكاهن لا يلبس المصبغ، والعراف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه والحكم لا يفارق الوبر.

وكان لحرائر النساء زي، ولكل مملوك زي، ولذوات الرايات زي. وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصفرة، وذكره الشاعر فقال:

واشهد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المعصفرا

وكان أبو أحيحة سعيد بن العاص اذا اعتم لم يعتم معه احد، هكذا في الشعر ولعل ذلك ان يكون مقصورا في بني عبد شمس، وقال ابو قيس الاسلت:

وكان ابو احيحة قد علمتم.....

وقال غيلان بن خرشة للاحنف: يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: اذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم، واستجادوا النعال، ولم تاخذهم حمية الاوغاد. قال: وما حمية الاوغاد ؟ قال ان يعدوا التواهب ذلا.

وقال الاحنف: استجيدوا النعال فانها خلاخل الرجال. والعرب تسمي السيوف بحمائلها «أردية» وقال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه قولا أحسن من هذا قال:

(١) البيان والتبيين،٣، ص٥٤-٥٦.

تمام جمال المرأة في خفها، وتمام جمال الرجل في لمته.....والعصابة والعمامة سواء، واذا قالوا: سيد معمم فانما يريدون ان كل جناية يجنيها الجاني في تلك العشيرة فهي معصوبة برأسه»[١] ولم يكتف الجاحظ بآثار العرب من قولهم ولفظهم وملبسهم، وانما استطرد في وصف اسواقهم وهو يذكر تقنع العرب قال: ((وكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع وفي اسواق العرب كأيام « عكاظ « و» ذي المجاز « وما اشبه ذلك التقنع، الا ما كان من ابي سليط طريف بن تميم أحد بني عمرو بن جندب فانه كان لا يتقنع ولا يبالي ان يثبت عينه جميع فرسان العرب.

وكانوا يكرهون أن يعرفوا، فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم))[٢] «فانظر كيف جمع بين ترجمته لاعراف وعادات فرسان العرب وبين ترجمة جزئية لطريف بن تميم باسلوب عفوي ومنهج استقرائي للمادة التاريخية الادبية التي وقعت بين يديه، وهو ما سبق وأشرنا اليه في تتبعه لآثار رسول الله ﷺ وسيرته، وساق الجاحظ اشعارا فيما ساقه عن عادات العرب وفرسانهم[٣] وقد يجمع اخبار عدة شخصيات في ترجمته لشخصية واحدة كما في ترجمته للحجاج (اخبار الحجاج) او في ذكره لاخبار الوليد بن عبد الملك وابيه واخيه سليمان[٤] دليل قصده الترجمة لرجال دولة بني أمية، وجمع في اخبارهم المتفرقة شيئا غير

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص٥٤، ٥٥، ٥٦ وانظر ما قاله في سعيد بن ذي العصابة، وما قاله ابو الاسود في العمامة، ج٣، ص٥٧-٥٨.

(٢) البيان والتبيين، ج٣، ص٥٧.

(٣) انظر الشعر الذي ساقه لطريف بن تميم عن سيما حمزة بن عبد المطلب والزبير وعمامته الصفراء وما قاله درهم بن زيد، ج٣، ص٥٧-٥٨ وهي سابقة في ادب الترجمة اذ خرج من الاطار التاريخي لتراجم الامم والرجال الى الملح الادبية والقص لاخبارهم وآثارهم.

(٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر خبر الحجاج مع انس بن مالك، ج١، ص٢٤٤-٢٤٥، ووصف عبد الملك له، وخبره مع العديل بن فرج، ج١، ص٢٤٧، واخباره مع قطري بن الفجاءة، ج٢، ص٢١٩-٢٢٠، وانظر على سبيل المثال لا الحصر ما اورده من خبر الحجاج مع محارب جامع، ج٢، ص١٠٨-١٠٩، وخبره

قليل من اخبار ملكهم ورعيتهم وملبسهم ومأكلهم ومراسلاتهم وخطبهم ومنابرهم على الرغم من توظيفه هذه الاخبار في خدمة موضوعاته مثل الفصاحة وخطب السلف قال «ولا بد من ان نذكر فيه بعض كلام معاوية، ويزيد، وعبد الملك، وابن الزبير، وسليمان، وعمر بن عبد العزيز، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد لان الباقين من ملوكهم لم يذكر لهم من الكلام الذي يلحق بالخطب وبصناعة المنطق الا اليسير»[١].

ثالثاً- التراجم الغيرية على وفق الفرق والمهن والاقاليم:-

وتراجم الجاحظ للرجال او حتى النساء مبثوثة في أثناء الكتاب في اكثر من موضع من اجزاء البيان الثلاثة على الرغم من قصده الترجمة لهذه الشخصية او تلك، وعدم قصده ذلك في كثير من المواضع ؛ ودليل ذلك انه ميز طبقات من الخطباء واخرى من النساك، بل وفصل احيانا اخرى في طبقات الخطباء انفسهم على وفق انتمائهم العقائدي او توزعهم الاقليمي كما في خطباء الخوارج وشعرائهم وعلمائهم وأئمتهم[٢] كما ترجم للقصاص وذكر كثير منهم باسمائهم[٣] وترجم للغات اهل الامصار كما فعل في لغة اهل مكة وفروقها عن لغة اهل البصرة ولغة اهل الكوفة[٤] كما ترجم لبعض رجالات فرقة من

مع امرأة خارجية، ج٢، ص٢٢٣، وخبر سليمان بن عبد الملك وما قاله ابو بردة بن ابي موسى الاشعري شتم الحجاج وطباعه، ج١، ص٢٥٠-٢٥١، وما ذكره من خبر معاوية مع الاحنف بن قيس ومحمد بن الاشعث، ج٣، ص٢٥١، وخبره مع ابن عباس في وفاة الحسن (رض)، ج٣، ص٢٥١-٢٥٢، وانظر وصف معاوية لقومه وقول الحسن بن علي (رض) فيه، ج٣، ص٢٤٥، وانظر ما اورده من خبر سليمان بن عبد الملك وغلامه وجاريته، ج٣، ص١٠٦، وخبر الحجاج مع اعرابي، ج٣، ص٩١ .

(١) البيان والتبيين، ١/ ٢٤٢.

(٢) انظر البيان والتبيين، ج٣، ص١٥٤-١٥٥.

(٣) انظر البيان والتبيين، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٤) انظر البيان والتبيين، ج١، ص٣٣-٣٤ و ج١، ص١٩٧ في خطباء البصرة .

الخوارج وبعض طبائع تلك الفرقة الاباضية[١] مع استشهاده بالشعر في تلك الترجمات. وعلى الرغم من وجود كثير من الاخبار (التراجم) في ثنيات البيان، الا ان التوظيف المنهجي عند الجاحظ لهذه الترجمات خدم ما اراد حده او ترسيخه من قيمة للبيان او الفصاحة او الحكمة او الزهد، كما طرق موضوعات العيوب الخلقية التي تعتري اللسان النطق او حتى للعارض من هذه العيوب بفعل الزمن قال: وهو يتحدث في اخبار او ترجمة أولئك الرجال لا سيما في صفات الاحنف الخلقية: «وروى الهيثم بن عدي، عن ابي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عمير قال: قدم علينا الاحنف الكوفة مع مصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة تذم في رجل الا وقد رأيتها فيه. كان أصعل الرأس، اجحن الانف، أغضف الأذن، متراكب الاسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتىء الوجنة، باخق العين، خفيف العارضيين، احنف الرجلين[٢] ولكنه اذا تكلم جلى عن نفسه»[٣]. ولو استطاع الهيثم ان يمنعه البيان أيضا لمنعه، لو لا انه لم يجد بدا من ان يجعل له شيئا على حال لما أقر بانه اذا تكلم جلى عن نفسه.» ويلاحظ ان كتب التراجم التي ظهرت بعد وفاة الجاحظ بنحو خمسة او ستة عقود عنيت بترجمة الرجال بكناهم واسمائهم وانسابهم، ومهنهم وصنائعهم مثل طبقات الشعراء او اللغويين او النحاة او طبقات الرجال على وفق مذاهبهم مثل طبقات الشافعية..الخ ؛ في حين اعطى الجاحظ اولى الاشارات لطبقات الرجال مثل الخطباء في الجاهلية والاسلام او القصاصين واللغويين والنحاة، وهو يتحدث عن البيان والخطابة او لحن النحاة واللغويين وغير ذلك، مما يعني ان له

(١) انظر البيان نفسه، ج١، ص٤٣-٤٤.

(٢) انظر لسان العرب، ابن منظور، مادة صعل : صعل الراس دقيقه مع طول، ج١، ص٢١٩٧، احجن : معوج، ج١، ص٧٥٦-٧٥٧، اغضف : مسترخي الاذن، ج٢، ص٢٩٠٥-٢٩٠٦، باخق : اعور العين، ج١، ص٢٣٦، احنف : معوج القدمين نحو بعضهما، ج١، ص٩٦٥. الأصعل: دقيق الرأس والعنق.

(٣) البيان والتبيين، ج١، ص٥٧-٥٨.

سبق التأليف في هذا الاتجاه لاحصاء طبقات هؤلاء الرجال، مع أنه في أحيان كثيرة – كما قال – لم يستطع احصاءهم وفق تدرجهم الزماني او الاحاطة بهم كلهم، كما في احصائه لخطباء الجاهلية والاسلام، بل وقدم منهج تقسيم الخطباء على وفق انتمائهم القبلي او العقائدي، وكما فعل في اهل الاسلام مثل خطباء البصرة والكوفة وعلمائهم، والتفت الجاحظ في سرده لاخبار هؤلاء الشعراء او الخطباء والعلماء بل وحتى الولاة والامراء والخلفاء وبعض الحمقى الى وصف مظاهر الشخصية مثل حلمها او سفهها او عيها او وصف رجالها مثل (الحجاج) رجل عبد الملك والوليد او وصف ازواجهم ونسائهم، على وفق طبيعة الموضوع الذي يناقشه فالجاحظ مبتكر لهذه الانواع من التراجم – التي عدت من كتب التاريخ بعد وفاته بقليل – على الرغم من كونه اديبا، وكتبه مصنفة ضمن كتب الادب[١] ويشفع الجاحظ كثيرا من تراجم الرجال بآرائه الشخصية، وهي طبيعة الترجمة الغيرية الادبية التي كان الجاحظ من روادها:» اما الجاحظ فانصرف الى الحكايات التصويرية لنواحي الاخلاق والسلوك في جانبي الاستقامة والشذوذ»[٢] والسيرة او الخبر من ايام تناقلها شفاها وحتى يومنا هذا تسير على منهج جمع الاخبار في شخصية وتكوين اراء حولها، ودليل ذلك أنه يضعها ضمن اخبار العلماء او النحاة او الدهاة او النوكى، وكان للجاحظ قصب السبق في هذا المضمار والمطلع على منهج التحليل النفسي او العقلي في الترجمات الغيرية الغربية الحديثة يرى اعتماد –أقوال الشخصية او افعالها

(١) انظر الفهرست، ص٢٩٣-٢٩٤، المختصر في اداب اللغة العربية، ص١٤٩. اما احسان عباس في فن السيرة فرايه ان الجاحظ بعيد عن السيرة ذات الطابع الادبي مع احساسه الدقيق بالشخصيات والاحداث والتجارب وانه لم يعالج هذا النوع من الادب وياتي هذا من اعتقاد الدكتور ان السيرة الغيرية ما أفرد الاديب مؤلفا موسعا لها وجعلها محور احداثه مما لا يتناسب مع موسوعية وشمولية الجاحظ للموضوعات على مر العصور التي يتحدث فيها فضلا عن ارادة الامتاع للقارىء بالخبر .

(٢) فن السيرة، بيروت، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٦، ص٢٠.

وانتقل هذا الاسلوب مرة اخرى قبل اكثر من نصف قرن الى ادباء العرب ومؤرخيهم[١]

رابعاً – السيرة الغيرية المنفردة وتداخلها مع الاممية باعتماد التحليل النفسي:-

واذا ما اردنا ضرب مثال على منهج الجاحظ في التحليل النفسي لاقوال الشخصية، نقرأ ما سرده في رد فعل معاوية وعبد الملك وهو يتحدث حديثا علميا عن فائدة الثنايا في النطق «قال ابو الحسن وغيره: لما شق على معاوية سقوط مقادم فمه قال له يزيد بن معن السلمي والله ما بلغ احد سنك الا أبغض بعضه بعضا، ففوك اهون علينا من سمعك وبصرك. فطابت نفسه.

وقال ابو الحسن المدايني: لما شد عبد الملك اسنانه بالذهب قال: لو لا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت» [٢] فجمع بين ترجمة معاوية وشيء من خبر يزيد بن معن وشفع ذلك بالتعليل النفسي في قوله (فطابت نفسه) وقوله (لو لا المنابر والنساء) على لسان عبد الملك، وهي لمحة انفرد الجاحظ قبل غيره من علماء العربية وادبائها في التراجم بها، كما نجد عنده بعض اخبار وآثار (تراجم غريبة) لعادات الامم وطبائعها كقوله نقلا عن ابي الحسن المدايني « قال: وسألت مباركا الزنجي الفاشكار – ولا اعلم زنجيا بلغ في الفشكرة مبلغه– فقلت له: لم ينزع الزنجي ثناياه ؟ ولم يحدد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال: أما اصحاب التحديد فللقتال والنهش، ولانهم يأكلون لحوم الناس، ومتى حارب ملك ملكا فاخذه قتيلا او اسيرا أكله. وكذلك اذا حارب بعضهم بعضا أكل الغالب منهم المغلوب. واما اصحاب القلع فانهم قالوا: نظرنا الى مقادم افواه الغنم فكرهنا ان تشبه مقادم افواهنا مقادم افواه الغنم. فكم تظنهم حفظك الله فقدوا من المنافع العظام بفقد

(١) مثل ترجمة ميخائيل نعيمة لجبران خليل جبران.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص٦٠.

تلك الثنايا ؟»[١] .

ويكفي النظر الى منهج الجاحظ في الترجمة لقوم من الاقوام في معرض سؤال واجابة علمية يتعلق بقضية لغوية في فائدة الثنايا لاستقامة النطق، ومثل هذا كثير في بيانه، كما وردت عنده ترجمة ناسب عالم في غير (باب اسماء الخطباء والبلغاء والانبياء، وذكر قبائلهم وانسابهم) قال في ترجمته لعقيل بن ابي طالب – مع ملاحظة موضع الترجمة – لان في بعضها اقوالا لصاحبها تخدم موضوعها قال في باب اسماء الخطباء « وكان عقيل بن ابي طالب « ناسبا عالما بالامهات، بين اللسان، شديد الجواب، لا يقوم له احد»[٢] ثم عاد فترجم له خبرا في (باب من الكلام المحذوف) وقال « وكان عقيل رجلا قد كف بصره وله بعد لسانه ونسبه وادبه وجوابه، فلما فضل نظراءه من العلماء بهذه الخصال صار لسانه بها اطول، وغاضب عليا واقام بالشام فكان ذلك ايضا اطلق للسان الباغي والحاسد فيه وزعموا انه قال له معاوية: هذا ابو يزيد، لو لا انه علم أني خير له من اخيه لما اقام عندنا وتركه. فقال له عقيل: اخي خير لي في ديني وانت خير لي في دنياي. وقال له مرة: أنت معنا يا أبا يزيد ؟ قال: ويوم بدر كنت معكم ؟ وقال معاوية يوما: يا اهل الشام، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه « تبت يدا أبي لهب وتب[٣]»؟ قالوا: نعم. قال فان ابا لهب عمه. فقال عقيل: فهل سمعتم قول الله عز وجل « وامرأته حمالة الحطب»[٤] قالوا: نعم. قال: فانها عمته. قال معاوية. حسبنا ما لقينا من اخيك. وذكروا ان أمرأة عقيل وهي فاطمة بنت عتبة بن ربيعة قالت: يا بني هاشم، لا يحبكم قلبي ابدا. أين أبي ؟ أين عمي ؟ أين أخي ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ترد أنفهم قبل شفاههم. قال

(١) البيان، ج١، ص٦٠.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص٢١٠.

(٣) سورة المسد، اية ١.

(٤) سورة المسد، اية ٤.

لها عقيل: اذا دخلت جهنم فخذي على شمالك»[١] وهذه ترجمة مقصودة بلا شك، جمع فيها شيئاً من خبر معاوية وشيئاً من خبر فاطمة زوج عقيل وعمه ابي لهب وعمة معاوية، وطبيعة ترجمته هذه اقتبسها بعده كثير من صناع التراجم مثل ابن النديم على نحو أضعف وابن خلكان على نحو أشد وغيرهم كثير، مع ملاحظة شهرة الشخصية عند الجاحظ التي تجعله يتجاوز ذكر آبائها (نسبها) الى اخبارها كما فعل في ترجمته لاخبار واقوال رسول الله ﷺ ثم مع بعض انبياء الله عليهم السلام ثم مع كثير من الملوك والخلفاء وولاتهم والقادة فاللغويين والنحاة والزهاد والعلماء حتى نجده ينقل الخبر مرة فيقول (قال الحسن) ثم يعود فيقول اخبرنا الحسن المدائني في الصفحة نفسها[٢] أو عن قطرب فقد ذكره باسمه الاول في الجزء الاول من البيان قال: «....ان مثل علي بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب و أشباه هؤلاء»[٣] .

وقد ميز الجاحظ في اخباره بين الخطباء والشعراء الابيناء الحكماء وبين الخطباء الشعراء[٤]، ومن العلماء والخطباء والشعراء[٥] كما ميز بين هؤلاء -كما ذكرنا سالفا - على وفق انتماءاتهم القبلية، بل وحتى عصبيتهم لاهل مصر من الامصار .

خامساً- تراجم صغيرة لشعراء رجاز:-

ونجد عنده ترجمات صغيرة متفرقة للشعراء الرجاز الخطباء، ومن له رسائل معروفة مثل بشار بن برد، وعرج على المطبوعين على الشعر من المولدين في تتبع لاخبارهم

(١) البيان والتبيين، ٢/ ٢٢٨.

(٢) انظر ما نقله عنه الجاحظ في البيان، ج٢، ص٦١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٥ وذكر نقلا عن الكسائي بلقبه خبرا في، ج١، ص١٢٤.

(٤) ضرب لذلك مثلا قس بن ساعدة الايادي وقال فيه «ومن يجمع الخطابة والشعر قليل»، ج١، ص٥١.

(٥) انظر ما اورده، ج١، ص٥٢-٥٣، بل وميز من الخطباء الشعراء العلماء ممن تنافر الاشراف : اعشى همدان، ج١، ص٥٣ .

في مواضع متفرقة[١] وخص الجاحظ خلفاء رسول الله ﷺ بتتبع اخبارهم وخطبهم واقوالهم[٢] ومن تلا الاربعة الراشدين الذين وضعهم في مصاف الخطباء.

سادساً- تراجم القصاصين:-

وترجم للقصاصين واصحاب الاخبار والنسب وميز منهم (الرواة والنسابين والعلماء) مثل «شرقي بن القطامي الكلبي ومحمد بن السائب الكلبي وعبد الله بن عياش الهمداني وهشام بن محمد بن السائب الكلبي والهيثم بن عدي الطائي وابو روق الهمداني...قالوا: ومنا في الجاهلية عبيد بن شرية ومناشق بن الصعب...»[٣]

وميز منهم اصحاب الاخبار والآثار[٤] .

سابعاً- تراجم النساء من اهل البيان:-

وترجم في باب (ذكر النساك والزهاد من اهل البيان) لنساء فقال:»...ومن النساء « رابعة القيسية» و»معاذة العدوية» امرأة صلة بن أشيم و»أم الدرداء» ومن نساء الخوارج «البلجاء» و«غزالة» و«قطام» و»حمادة» و»كحيلة» ومن نساء الغالية « ليلى الناعطية» و«الصدوف» و«هند»[٥].

(١) انظر ما اورده في، ج١، ص٥٤ وما ذكره من اسماء الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير المولدة والاخبار المدونة، ج١، ص٥٥.

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر ما قاله في احكام عمر بن الخطاب، ج١، ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١، وفي ابي بكر، ج١، ص١٧٩ وخطبة له، ج٢، ص٤٧ ورسالة عمر في القضاء، ج٢، ص٤٧ وخطبة للامام علي (رض)، ج٢، ص٥٠، ٥١، ٥٢ وشيء من سيرته، ج٣، ص١٣٢، ١٣٣، ١٥٩، وتأبين عائشة لابيها، ج٢،ص٢١٤، وكلاهما في مقتل عثمان، ج٢، ص٢٠٩ وهو جمع بين سيرتيهما، واخبار الخلفاء الاربعة عنده غير قليلة.

(٣) البيان والتبيين، ج١، ص٢٣١.

(٤) انظر المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢ وهي ترجمة خالصة لاولئك الاخباريين واصحاب الاثر نقلها بعده اصحاب كتب التاريخ (التراجم) لاسيما التي فصلت في طبقات الخطباء او الاخباريين وغيرهم.

(٥) البيان والتبيين، ص٢٣٢.

الخطباء والبلغاء والحكام الرؤساء

وميز كذلك منهم (الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء) و(من القدماء العلماء بالنسب وبالغريب)[١] بل جعلهم طبقات على وفق تخصصهم[٢].

ثامناً- تراجم الحمقى:-

وترجم للنوكى والحمقى والمجانين في سبق لهذا النوع من الاخبار لم يتقدم عليه فيه أحد بل لحقه الآخرون في التأليف ضمن مضماره[٣] من ذلك ما قاله في ريسموس اليوناني الاحمق او جعيفران المتشيع ومالك بن زيد مناة التميمي، فالاصول او المذهب لم تغب عن تقسيمه لطبقاتهم بل وحتى جنسهم قال في النساء مثل «ساريه الليل ومنهم ريطة بنت كعب بن سعد بن تميم بن مرة وهي التي نقضت غزلها أنكاثا فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل وهي التي قيل لها: خرقاء وجدت صوفا ومنهم دغة وجهيزة وشولة وذراعة المعدية»[٤] فجمع بين القصة القرانية وتفسيرها والترجمة لريطة بنت كعب وقد يكون الجاحظ الاديب العربي الوحيد الذي تقدم بهذا المنهج في تاريخ الادب العربي الاسلامي، ومما تجدر الاشارة اليه ان الجاحظ يكرر منهجه في هذه الترجمات الصغيرة

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٣ مكتفيا بذكر اسمائهم وهي ترجمة قلده في منهجها كثير من كتاب التراجم بعده مثل ابن النديم .

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٠ انظر ترجمته لابي الاسود وضمن العلماء النسابة واسمه وما قال فيه، ج١، ص٢١١ وترجمته لخالد بن صفوان، ج١، ص٢١٩، ٢٢٠ ودليل ذلك انه عاد ليذكره في باب (من لحن البلغاء)، ج٢، ص١٦١ كما ذكره لحن الحجاج في قراءة القرآن، ج٢، ص١٦١.

(٣) انظر المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٤-١٦٩ و ص١٧٣-١٧٨.

(٤) البيان والتبيين، ج٢، ص١٦٥.

المتفرقة فيجمعها تارة وفق توزع اصحابها الجغرافي (الاقليمي)[١] مثلما فعله مع بعض النحاة واللغويين وذكر بعض الاخبار في الخلفاء والخطباء والولاة في (باب العي)[٢] مع ملاحظة التزام الجاحظ بالتسلسل التاريخي في معظم المواضع بايراده الاخبار والاقوال بل ان بعض الابيات جعلته يعد الكميت من اهل الحمق[٣].

النتائج
منهجية الجاحظ في التراجم

وكثيرا ما يقرن ترجمته للرجل برأيه الشخصي فيه مثل قوله « قال أبو عثمان: وليس في الارض أعجب من طرفة بن العبدو عبد يغوث، وذلك أنا اذا قسنا جودة اشعارهما في وقت احاطة الموت بهما لم تكن دون سائرا اشعارهما في حال الامن والرفاهية «[٤]ولعل أغرب ما عد خبرا في (شخصية) لدى الجاحظ في بيانه ما اورده في ابليس لعنه الله من ابيات شعرية لبشار في الاعتذار له لعنه الله[٥] وشعر بعض خلفاء بغداد فيه وقال « وذكر قوم ابليس فلعنوه وتغيضوا عليه.

(١) البيان والتبيين، ج٢، ص١٦٧ ذكر مجانين الكوفة لاسيما بهلول المتشيع.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١ وعلق على خبر في صبرة بن شيمان، ج٢، ص١٧١ وشفعه برايه في الخبر فقال «وهذا باطل، وقد سمعنا لصبرة كلاما لا ينبغي ان يكون صاحب ذلك الكلام»

(٣) انظر ما اورده للكميت في مدح الرسول ﷺ، ج٢، ص١٧٢-١٧٣ وانظر ما اثبته من ابيات طرفة بن العبد في قابوس بن هند الملك اذ جعله فيها من النوك، ج٢، ص١٧٧ وهي لفتة لم يثبتها غيره في هذا الموضع وهي جزء من ترجمتها (اخبارهما) كما تسمى عند القدماء.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٣.

(٥) انظر المصدر نفسه، ج١، ص٤٢-٤٣ ورد سليمان الاعمى عليه واشعار بعض خلفاء بغداد في ابليس.

وقال ابو حازم الاعرج وما ابليس ؟ فقد عصي فما ضر، وأطيع فما نفع»[١] وهي مما لاشك فيه جزء من اخبار بشار بن برد وابي حازم الاعرج وغيرهم ممن ذكره.

ومما يعد لمحة لطيفة في الترجمة للأسر ما اورده من اشعار في بني امية في مدحهم وذمهم وفي البرامكة كذلك[٢] وهو امر درج عليه اصحاب كتب التراجم التاريخية بعده من الاستعانة بالاشعار في الترجمة لبعض الشخصيات بل وبعض الملل والأسر حتى في كتب التواريخ الضخمة.

وسبق القول في منهج الجاحظ واسلوبه في عرض المعلومة والاستفاضة في رفد الترجمة بالمعلومة التاريخية مما ميز الترجمة في كتابه عن غيرها في كتب التاريخ والسير او حتى الكتب التي محضت لموضوعات مثل كتب الخطباء وغيرها قال في معرض حديثه عن خطباء العرب وطبقاتهم وما اعترى بعضهم قائما او قاعدا « ومن الخطباء « معبد بن طوق العنبري « دخل على بعض الامراء فتكلم وهو قائم فأحسن، قال فلما جلس تلهيع في كلامه، فقال له: ما اظرفك قائما وأموقك قاعدا ! قال: اني اذا قمت جددت، واذا قعدت هزلت. قال: ما أحسن ما خرجت منها: ومن خطباء عبد القيس « مصقلة بن رقبة بن مصقلة» و« كرب بن رقبة» والعرب قد ذكروا من خطب العرب «العجوز» وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها او من بعضها و»العذراء» وهي خطبة «قيس بن خارجة» لانه كان ابا عذرها و» الشوهاء» وهي خطبة «سحبان وائل» وقيل ذلك لها من حسنها، وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب. وكان ابو عمار الطائي « خطيب مذحج كلها فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله على منادمته وكان النعمان احمر العينيين، أحمر الجلد، أحمر الشعر، وكان شديد العربدة،

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٨-٢٠٥.

قتالا للندماء، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته، فلما قتله رثاه فقال:

اني نهيت ابــن عــمار وقـلــت له لا تأمنن أحمر العينيين والشعره
ان الملوك متى تنزل بساحتهم تطر بــنــارك مــن نــيرانهــم شرره
ياجفنة كــازاء الحـوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبره[1]

فجمع بين الترجمة لاولئك الخطباء وبعض اخبارهم مع الامراء والخلفاء والملوك فضلا عن نسبهم وتصنيفهم على وفق انتمائهم العصبي القبلي، واستطرد فذكر ما عدته العرب من ذاكرة الخطب عندهم، وهو منهج لطيف يبعد الملل والسأم في القراءة والبحث، مما يؤكد ان الابداع في سرد التراجم لا يقتصر على ترجمة الاديب لنفسه كما هو متعارف عليه في البحث الحديث وانما يتخطاه الى التراجم التاريخية الصغيرة المتعددة وهو فن نجده عند الجاحظ قديما غير حديث كما هو شائع من ان باحثي الغرب هم الذين اوجدوا الترجمة التاريخية المنفردة الفنية للشخصيات (الترجمة الغيرية)، ولعل الجاحظ هو الاديب الوحيد الذي له القدرة على الترجمة الغيرية للشخصية الفردية وللجماعة او القبائل بالقدرة نفسها من الابداع والتعليل والتحليل.

فللجاحظ قدرة التصرف في تدوير الفكرة واستخراج الاثر وتتبع الخبر في مناقشته للفكرة والموضوع الذي يتحدث فيه، وعليه يمكن القول ان الترجمة الغيرية التاريخية اتخذت اشكالا متعددة في بيانه وجاءت جماعية حينا (الخطباء، العلماء اللغويين النسابة... الخ) وطبقاتهم او ترتيبهم اقليميا او عقائديا او وفق انتمائهم القبلي وكذلك فعل مع

(١) البيان والتبيين، ص٢٢٤-٢٢٥.

النحاة واللغويين وغيرهم من النوكى والحمقى واحيانا جاءت الترجمة تاريخية كما هي في اقوال واوصاف وخطب الحجاج او عبد الملك او ولده الوليد وتنوعت واتسعت حتى شملت اوصاف الامم في سرد لطيف جديد يمكن جمعها واخراجها في كتاب يحتفظ فيه باسلوب الجاحظ كما هو لا كما اقتبسه بعده اصحاب كتب التاريخ (التراجم) مثل صاحب الفهرست او ابن خلكان في وفياته او ياقوت في معجم الادباء او المتلمس في بغيته وهكذا فلكل واحد منهم اختيار محدد في الترجمة لرجال او لطبقة او اصحاب مهنة يستثنى من ذلك ابن النديم الذي اقترب كثيرا من عمل الجاحظ في الترجمة مع فارق الاسلوب ورشاقته وجدة الفكرة عند الجاحظ واسنادها في احيان كثيرة.وبهذا يكون الجاحظ مؤرخا سيريا في هذا الاتجاه من دون شك وهو ما لم يعرف به سابقا. وينطبق عليه ذلك في نقله لاخبار رسول الله ﷺ اذا اتخذت ترجمته له عليه الصلاة والسلام صورة واقعية لا نسانيته عليه الصلاة والسلام.

وقد ادرك هذه الصورة غير واحد من الباحثين قديما وحديثا قال الدكتور احسان عباس « وقد اضفت الكتب المتأخرة نوعا من التقديس على شخصية الرسول لا يلمح في المصادر الاولى ويظهر الرسول في اكثر الروايات المبكرة كما صوره القرآن « قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا « ثم انصرف الكاتبون في السيرة الى تدوين دلائل النبوة وشمائل النبي، وبذلك أخذت العناصر التاريخية تتضاءل امام الغايات الخلقية في كتابه السيرة»[1] .

وضرب لذلك مثلاً كتاب الدلائل مثل ابي نعيم البيهقي ومؤلفي اعلام النبوة كالسجستاني والماوردي وعلى الرغم من اختلاف وجهة نظر د. احسان عباس في

(١) فن السيرة، ص١٧ وانظر عمل ابن خلدون في مقدمته تحت تسمية في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة وما قاله في الوحي والرؤيا وحقيقة الكهانة والرؤيا والعرافين، ص٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧١.

الحديث عن طبيعة ترجمة الجاحظ وعده لها ضمن الاطار التاريخي لا الادبي كما تقدم ؛ الا ان عرض الجاحظ للاخبار والاقوال يؤكد حرفيته والمنهجية في اضفاء الطابع القصصي على اخبار وحياة من ترجم لهم.

فهو مريد للترجمة في اغلب مواضع البيان وان وظفها في خدمة الفصاحة والبيان والعي وغير هذه من العنوانات فضلاً عن سبقه النقل للاثر في ترجمة الشخصيات من آي الذكر الحكيم ولم يقتصر على ترجمة الافراد وانما تخطاها الى تراجم الامم وطباعها ومبلبسها. وامتاز بجمع اكثر من ترجمتين في ايراد اخبار الشخصيات وتراجمهم ؛ اسناده الخبر توفر في كثير من مواضع ترجمته فضلا عن تداخل الترجمة الغيرية الفردية عنده مع تراجم الامم لارتباطهما الوثيق في الخبر. استعان الجاحظ بالاشعار في الترجمة لصفات الافراد والامم، مع موسوعية في ايراد الخبر والاوصاف والشخصيات واحياً الطباع. مع الالتفات للتحليل والتعليل الذي كان نفسياً في بعض المواضع. اغفل احياناً نسب الشخصية لشهرتها، مع طرح آرائه الشخصية فيمن يترجم له. فرق ترجمة الشخصية الواحدة في كتابه لغرض الامتاع وابعاد السأم.

❑ ❑ ❑

قائمة المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .
٢- الامالي (غرر الفوائد ودرر القلائد) الشريف المرتضى، ت محمد ابو الفضل ابراهيم، الجزء الاول، القاهرة، ١٩٥٤.
٣- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
٤- البيان والتبيين (١-٣) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت حسن السندوبي، الطبعة الاولى، ١٣٤٥هـ-١٩٢٦م.
٥- تاريخ الادب العربي، ر. بلاشير، ترجمة د.ابراهيم الكيلاني، المجلد الثاني، دمشق، ١٩٧٣.
٦- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، الجزء ١٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
٧- فن السيرة، د.احسان عباس، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، ١٩٩٦.
٨- الفهرست، ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق المعروف بابن النديم، ضبط وشرح وتعليق د.يوسف علي طويل، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٤٢هـ-٢٠٠٢م.
٩- كنز العمال في سنن الاقوال والافعال للعلامة علي المتقي علاء الدين الهندي (م ٩٧٥هـ١٥٦٧م)، ط٢، دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، الجزء ٧ (١٣٧٨هـ-١٩٥٩م).
١٠- لسان العرب، ابن منظور ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، المجلد ١ و ٢، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، مراجعة وتدقيق د.يوسف البقاعي، ابراهيم شمس الدين، نضال علي، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١١- المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار الهلال، ١٩٤٦.
١٢- معجم الادباء، او ارشاد الاريب الى معرفة الاديب، ياقوت الحموي، الجزء ٤، بيروت، ١٩٩١.
١٣- مقدمة العلامة ابن خلدون عبد الرحمن، الجزء الاول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ت حجر عاصي، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٨.
١٤- وفيات الاعيان، ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر المتوفى ٦٨١هـ، ت احسان عباس، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧-١٩٧٨.

❑ ❑ ❑